عرض كتاب

الشرق الأوسط الجديد ؟
سيناريو الهيمنة الإسرائيلية

تأليف : علاء عبد الوهاب
الناشر : سينا للنشر
تاريخ ومكان النشر : القاهرة ١٩٩٥

عرض : مجيد هادى مسعود*

لم تكن فكرة " السوق الشرق أوسطية " فى رأى المؤلف بالنسبة لمعظم الدول العربية ، سوى فكرة افتراضية ، لا تمثل الا طموحاً اسرائيلياً يتجاوز كثيراً معطيات الواقع العربى . الا أن هذه الفكرة الافتراضية - التى تعكس طموحاً اسرائيلياً يواكبه سعى دؤوب لفرضه - أصبحت مع توقيع الاتفاق الفلسطينى / الاسرائيلى فى سبتمبر ١٩٩٣ فكرة تزاحم مفردات الواقع ، وتمحو أبجديات عربية ، وحقيقة واقعة .

ويحدد المؤلف الهدف من هذا الكتاب بقوله : إنه أقرب الى الدراسة الاستطلاعية التى ترصد الشواهد التاريخية ، والواقع الراهن ، ولكنها تحاول - أيضاً - تجاوز مجرد العرض والرصد سعياً نحو التحليل ، والتفسير كلما أمكن ذلك .

وفى الفصل الأول من هذا الكتاب ، يقول المؤلف إنه فى غياب مرجع تاريخى جامع يحدد بدقة أصل مصطلح " الشرق الأوسط " والسياق الزمنى لتداوله ،يمكن ربط الأمر بأحداث تاريخية ثلاثة كبرى :

* باحث اقتصادى - قطر

* ظهور " المسألة الشرقية " فى القرن التاسع عشر .
* تطور الظاهرة الاستعمارية فى أواخر القرن ال ١٩ ، ومطلع القرن ال ٢٠ .
* قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ .

ويؤكد الكاتب أن ما بدا على السطح - فى ظاهره - مصطلحاً أو مفهوماً جغرافياً محايداً ، انما كان - فى الحقيقة - مصطلحاً مفعماً بأغطية وأبعاد أيديولوچية منذ عشرينات هذا القرن . ولكون العبرانيين كما يراهم البروتستانتيون ، شعباً ومملكة منذ آلاف السنين ، فعودتهم المجسدة باسرائيل للوجود فى المنطقة - اذن - برأيهم أمر طبيعى .

وفى الفصل الثانى ، يقول المؤلف إنه رغم قيام جامعة الدول العربية ، الا أن التعامل مع المنطقة من جانب الغرب - أوربا أمريكا - كان دائماً من منظور شرق أوسطى ، مع التسليم بوجود كتله عربية . ويرى المؤلف أنه يمكن أن يوجد نظام شرق أوسطى بداخله نظام عربى ، لكن ما يقلق - من وجهة نظره . هو ما يبدو حتى الآن من دخول الدول العربية فرادى الى هذا النظام ، مما يجعل وضعها أضعف . هذا فضلاً عن غياب رؤية واضحة لسلم الأولويات فى شأن تعدد الانتماء لأكثر من نظام اقليمى ، فضلاً عن النظام العربى القومى المتمثل بالجامعة العربية .

ويضيف الكاتب أن حرب الخليج الثانية - بعد الاحتلال العراقى للكويت . أكدت بوادر النظام الشرق أوسطى ، حيث كانت اسرائيل وتركيا طرفين فى ادارة الأزمة ، الأولى بشكل غير مباشر والثانية بشكل مباشر . ولعل أخطر نتائج حرب الخليج الثانية ، هى الاعلان عن عجز النظام العربى وانكساره ووقوفه على حافة الانهيار . أعقب ذلك سقوط الاتحاد السوفيتى المدوى ، وميلاد عصر القطب الواحد ، ثم جاءت صيغة مدريد للسلام عبر مسارات ثنائية منفصلة اسرائيلية / عربية ، بالتوازى مع المحادثات متعددة الأطراف تتويجاً لمسيرة نصف قرن من التجاذب والتنافر بين النظام القومى العربى والنظام الشرق أوسطى . ويستخلص المؤلف أن الهدف الأساسى

من قيام النظام الشرق أوسطى ، هو تأمين المصالح الغربية - الأمريكية بوجه خاص - وتعظيم الاستفادة من مصادر الثروات العربية .

وتم تخصيص **الفصل الثالث** من هذا الكتاب لاستعراض مراحل تطور فكرة " السوق الشرق أوسطى " والتى أكد الكاتب على أن أصولها ترجع الى ما قبل ولادة اسرائيل ذاتها ، وأنها ستؤدى الى وضع المنطقة على أبواب مرحلة جديدة تولد فيها سوق شرق أوسطية وفق معايير اسرائيلية ، تخدم استراتيجية المشروع الصهيونى التى لم تتبدل ، والتى تستهدف دائماً الهيمنة على ثروات الوطن العربى ومقدراته .

وفى الفصل الرابع من الكتاب تناول المؤلف جذور الدعوة الصهيونية لمشروعهم المستقبلى ، وأورد نصاً جاء فى نداء " شبتاى زفى " الموجه الى اليهود عام ١٧٨٩ . وقام بتحليل هذا النص مستخلصاً أن نزعة الهيمنة الاقتصادية - ذات الصبغة الاستراتيجية - عند دعاة الصهيونية ومنظريها ترجع الى حوالى قرنين من الزمان .

وجاء **الفصل الخامس** من الكتاب بملاحظة أساسية مفادها أن كلاً من اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية حرصتا على التركيز على البعد الاقتصادى فى أى تسوية ، لذا فقد تضمنت المبادرات السلمية التى طرحت من جانب أى منهما لحل أى جانب من جوانب الصراع العربى الاسرائيلى ، وعلى أى مسار ، أو فى الاتفاقات - المنفردة والجزئية - التى يتم التوصل اليها بين اسرائيل ، وأى دولة عربية . وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية دور الوسيط أو الشريك - نصوصاً تلزم الأطراف العربية بدرجة من درجات التعاون الاقتصادى أو التطبيع - الثنائى أو الاقليمى ، بشكل مباشر أو غير مباشر . وللاستدلال على ذلك قام المؤلف باستعراض للنصوص التى تضمنتها المبادرات التى طرحتها واشنطن وتل أبيب ، أو بنود الاتفاقات التى تم التوصل اليها من بدء الصراع حتى صدور هذا الكتاب عام ١٩٩٥ .

وأورد **الفصل السادس** ما يراه بعض المحللين من أن النظام الدولى الجديد

هو غطاء مفيد للنشاطات التي ترتبط بدرجة أوثق مع المصالح القومية الأمريكية . ويمكن استغلال ذلك فى تحديد السبل التى تصرف فيها دول الشرق الأوسط أموالها ، ويسمح لها بموجبها بالاتجار مع بقية دول العالم . ويمكن توظيف النظام الدولى الجديد لايجاد مركز تتمتع فيه الولايات المتحدة الأمريكية بامتيازات خاصة ، على حساب منافسيها الأوروبيين والأسيويين فى المنطقة .

وتكون الخطوة التالية محاولة لوضع اليد على أبعاد التصور الأمريكى للمنطقة فى اطار السوق الشرق أوسطية- باعتبارها جزءاً من نظام اقليمى - وهو تصور يأتى ضمن استراتيجية الهيمنة الأمريكية أو فرض السلام الأمريكي على العالم الثالث - فى اطار رؤية كونية أشمل - من خلال تعزيز ودعم نمط التنمية الذى تفضلة الولايات المتحدة الأمريكية فى دول العام الثالث ، وهو النمط الذى يؤكد على أهمية الاستثمارات الأجنبية ، والانتاج من أجل التصدير ... الخ والعمل على افشال أنماط التنمية الاقتصادية البديلة .

وتناول الباحث **فى الفصل السابع** للكتاب أبعاد التمهيد لتكوين عقلية جديدة ، تقبل المعطيات التى تزعم أن المنطقة العربية عل أبواب مرحلة جديدة يترتب عليها ضرورة قيام تعاون اقليمى بين العرب واسرائيل وأطراف اقليمية أخرى من خلال صيغة شرق أوسطية . ويتفق المؤلف مع الرؤية التى ترد بدايات هذا التوجه - فكرياً وسياسياً ونفسياً - الى التداعيات التى تلت نكسة حزير ان (يونيو) ١٩٦٧ . حيث ظهرت نخب عربية تتواءم - ولو على استحياء فى أول الأمر - مع هذا التحول التاريخى فى المواقف العربية . ثم جاء طرح قمة " فاس " عام ١٩٨٢ لصيغة عربية بديلة للتسوية السلمية . وبعدها قبلت الأطراف العربية جميعاً بصيغة مدريد ، وواصلت التفاوض من خلال المسارات الثنائية . ويعرض المؤلف لنماذج من هذه الأطروحات الداعية لقبول التنازل عن المبادئ لصالح القبول

وبالتعامل بأشكال مختلفة مع اسرائيل .

وعلى محور تكوين العقلية الجديدة ، التى تواكب طرح مشروع السوق الشرق أوسطية وخطواته التنفيذية ، تعددت المؤتمرات وحلقات النقاش فى عدة عواصم بينها القاهرة ، عمان ، تل أبيب ، واشنطن ، روما ، لندن ، باريس ... الخ . ويسرد المؤلف ما دار فى هذه اللقاءات وما صدر عنها من قرارات وتوصيات . ويقول لقد تجاوزت محاولات التأثير على النخب والرأى العام ذلك كله الى الحرص على ابراز مشاركة يهودى فى علاج الداعية الاسلامى البارز الشيخ محمد متولى الشعراوى ، والقيام بجراحة دقيقة أنقذت حياته – خلال ديسمبر ١٩٩٣ – وبالطبع فان مشاعر الامتنان التى يجب أن يلقاها الطبيب اليهودى سوف تلقى بظلال ايجابية على الصورة الذهنية لليهود فى اتجاهات الرأى العام العربى عموماً والمصرى بوجة خاص ، ويصب ذلك كله فى مجرى عمليات التطبيع الفكرى والمعنوى والتى امتدت للأكسسوارات النسائية ولعب الأطفال وملابسهم وكل ما يؤدى الى عقل ووجدان الانسان العربى ومحاصرته أينما وجد .

وتناول **الفصل الثامن** من الكتاب الخطوات التنفيذية للشروع فى تحويل المشروع الى واقع على الأرض ، مع التركيز على رصد الاجراءات الفعلية والقرارات التى تنشئ واقعاً حياً . حيث قام المؤلف فى هذا الفصل بعملية رصد واقعي للأحداث مع التعرض لملامح التطبيع المصرى / الاسرائيلى ، بحيث يمكن حسب قول المؤلف الوصول – اتفاقاً أو اختلافاً – الى تحديد المربع الذى يؤطر المشروع فى الوقت الراهن باعتبار الخطوات التطبيقية تصب فى المحصلة النهائية ، فى المخطط الأشمل ، والساعى الى فرض السوق الشرق أوسطية .

ويستخلص المؤلف أن الخطوات التنفيذية – خلال عام ١٩٩٣ – باتجاه التطبيع شهدت زخماً كمياً وكيفياً ، على طريق التمهيد – باجراءات عملية – تقود لمشروع السوق الشرق أوسطية ، وبايقاع أسرع من مراحل سابقة ،

لطرق الحديد وهو ساخن ، بعد توقيع الاتفاق الفلسطينى / الاسرائيلى ، وتحسباً من جانب اسرائيل للوقوع فى دوامات السلام البارد التى أعقبت توقيع اتفاق السلام المصرى / الاسرائيلى .

ويؤكد المؤلف فى **الفصل التاسع** أن اسرائيل يعنيها من السوق - أكثر من أى هدف آخر البعد المالى ، أى مساهمة رؤوس الأموال العربية فى تنميتها .. وأن يتحمل النفط العربى تكاليف مستقبل اسرائيل . أى بدقة أكثر أن تصبح اسرائيل أمريكا الشرق ، ويتحول العرب الى مجرد دويلات موزعة على تخومها . ويقدر الاقتصاديون الاسرائيليون امكانية توجيه نحو ثلث تجارة اسرائيل الخارجية الى العالم فى ظل أوضاع السوق المشتركة للشرق الأوسط .

ويضيف الكاتب أننا اليوم بصدد " سايكس -بيكو " جديدة ، أساسها أن يدور المشرق العربى والخليج فى الفلك الاسرائيلى / الأمريكى ، مقابل أن يدور المغرب العربى فى الفلك الأوروبى ... وهذه النظرة تسقط تماماً الاعتراف بوجود أمة عربية . ووفقاً لذلك كله ، هناك عدة سيناريوهات ل " الفك " واعادة التركيب لدول المنطقة العربية تتلاءم مع متطلبات النظام الشرق أوسطى الجديد . ويتناول المؤلف بشئ من التفصيل هذه السيناريوهات ، وفقاً للتصور الاسرائيلى / الأمريكى والسائرين فى ركابهما من العرب .

ويحلل **الفصل العاشر** من الكتاب الاتفاق الفلسطينى / الاسرائيلى وما تضمنته نصوصه وملاحقه من مشروعات مشتركة تجعل منه جسراً تعبره اسرائيل لبلدان عربية أخرى . ويبين المؤلف أضرار بعض هذه المشاريع مثل الاستغناء عن قناة السويس كممر للبترول العربى المتجه الى أوروبا بمد خطوط الأنابيب الى حيفا أو غيرها من الموانى فى اسرائيل . وأضرار مشروع قناة البحرين منها ما هو ناجم عن خلط مياه البحرين ، وما يترتب على زيادة منسوب البحر الميت ، وتعرض خزانات المياه الجوفية فى المنطقة

للخطر ، وما يصيب المشروعات الأردنية فى منطقة البحر الميت من أضرار، أو ما يترتب على تغيير الوضع الجغرافى والتركيب السكانى للمنطقة من جراء تنفيذ قناة البحرين .

ويرى المؤلف في **الفصل الحادى عشر** أن المقاطعة العربية ليست فقط آخر الخطوط الدفاعية ، التى يلوذ بها العرب أمام الهجوم الاسرائيلى / الأمريكى باتجاه زرع فكرة السوق الشرق أوسطية من ناحية ، وفرض بدائل اسرائيلية تخصم من العرب وتضيف للمشروع الصهيونى ، ولكنها قد تكون الورقة الأخيرة أمام المفاوض العربى على مائدة المفاوضات لانتزاع بعض الحقوق العربية ، التى مازالت مغتصبة تحت القبضة الاسرائيلية وتساءل الكاتب هل يفرط العرب فى ورقتهم الباقية وخط دفاعهم الأخير؟

ويشير الباحث فى **الفصل الثانى عشر** من الكتاب الى تشابك المصالح والحدود مع دولة الجوار تركيا لكل من العراق وسورية، وكيف أنها مرت بمراحل متعددة ، ركود فتوجس ثم انفصام وبعدها مراجعة للذات الى تمتين العلاقات مؤخراً ، التى لم تخل من توترات فى بعض الأوقات ، واستخدام المياه كسلاح استراتيجى . ويقول المؤلف إن السعودية قد حاولت جاهدة جذب تركيا لسياسات الشرق الأوسط ، بهدف التوازن الاستراتيجى فى المنطقة ، خاصة لموازنة الطموحات العراقية والايرانية .

وفى طرحه للبديل القومى فى **الفصل الثالث عشر** من الكتاب ، يؤكد المؤلف أنه يتم تحقيق هذا البديل عبر توفير الشروط التالية :

* حل التناقض بين القطرية وما فوق القطرية فى اطار دستورى .
* التوجه نحو المشاركة المتصاعدة فى ادارة المجتمع .
* حل المنازعات العربية بالطرق السلمية .
* الالتزام بمشروع تنموى يجرى تنفيذه خلال عقدين أو ثلاثة عقود .
* انشاء قوة أمن عربية مشتركة .

* العمل على ربط ترتيبات أمن النفط بأمن المنطقة ، وبتسوية دولية لجميع مشكلات المنطقة.
* تطوير مؤسسات النظام العربى ، وابتكار مؤسسات وأساليب جديدة للعمل العربى المشترك .

ان هذا البديل العربى وشروط انجازه - كما يقول المؤلف - لا يطرح على سبيل الحلم الطوبائى ، أو ممارسة نوع من الترف الفكرى ، ولكن على أساس أنه فى ظل أى بديل آخر ، ستكون الهوية العربية فى خطر .

واستعرض المؤلف **فى الفصل الرابع عشر** من الكتاب مسيرة العمل العربى المشترك منذ تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ . وطالب بايقاظ الوعى العربى وتنبيهه الى خطورة الموقف الراهن على المستقبل العربى ، عند طرح فكرة السوق الشرق أوسطية ، ثم بحث وسائل تحريك المياه الراكدة فى القنوات الاقتصادية العربية ، وتنظيف هذه القنوات ، ودفع مياه جديدة حتى تصبح هناك شبكة اقتصادية عربية مهيأة للتفاعل عبر آليات سوق عربية مشتركة . وتوقف المؤلف عند المحطات الرئيسية فى مسيرة العمل العربى المشترك مستخلصاً العبر مما أصابها من عثرات وأخطاء من أجل تخطيها مستقبلاً .

وأكد المؤلف **فى الفصل الأخير** أنه حتى تعود لمفهوم الاندماج الاقتصادى العربى قوة الدفع المناسبة ، فلا بأس من التسليم - بداية - بأن مسألة تحقيق الحد الأدنى من التكامل الاقتصادى المنشود الذى يمكن أن يضع الاقتصادا ت العربية المجزأة على سكة الوحدة ، ليست مسألة بسيطة . والقبول بالحد الأدنى يحتم بالتالى مد البصر الى الأمام لتحصيل رؤية لها قدر من الشمول - على المستوى التخطيطى - بهدف الارتقاء - خطوة خطوة - بعملية التكامل والاندماج ، متوسعاً فى شرح هذه الخطوات المتدرجة . وأن نبدأ فى اختيار الخطوة الأولى ، ونحسن الاعداد لها لضمان نجاحها ، واقترح الباحث على سبيل المثال الاعداد لعقد مؤتمر اقتصادى عربى يضم

كبار الخبراء والمتخصصين للاسهام علمياً وعملياً فى تحديد أفضل الصيغ فى هذا المضمار .

ويختتم المؤلف هذا الكتاب الهام بقوله : إن التسليم بوجود الأزمة ، وما تحمله جدلية الواقع العربى من مفارقات ، لا يعنى التسليم – ميكانيكياً – باستحالة تجاوز هذا الواقع المرير الى آفاق وحدوية ... فالاخفاقات القائمة حتى الآن لا تعنى بالضرورة أن تحقيق المشروع القومى العربى ، والحفاظ على النظام العربى ، أمر غير ممكن أو وارد ، فقد كانت أمم أخرى ، ربما أكثر من الأمة العربية ، فى سبيل تحقيق وحدتها كما هو الحال بالنموذج الألمانى ، والأمة العربية تملك العديد من العوامل التى تقودها الى الوحدة . فالانسان هو الذى يستطيع – أو لا يستطيع – تشكيل الزمن الآتى.